المشدود على الدوام، ويحسّ بنفسه أكبر من سنّه الحقيقيّ فهو لم تسنح له الفرصة لكي يستمتع بعهد طفولة. وحين يموت الزوج غرقاً، في مياه البحيرة (هل مات انتحاراً أم قضى ضحية لجريمة مدبّرة!؟) يتعهد الصبيُّ أن ينتقم ـ عندما يكبر ـ من الذي تسبّب في موته.

ـ زوجة ابن شابة (تدخل بين سطور الرواية، كعنصر خامس، حين يصبح الصبيّ الصغير رجلاً، ويتزوج) تحار في تفسير دوافع العلاقات المتشنجة بين أفراد العائلة.

عندما جلستُ أتلمّس طريقي للبدء بكتابة هذه الرواية الصغيرة، بدا لي العملُ صعباً، ومسارُ الرواية مجهولاً. واجهت أوراقي البيض متوجِّساً، حائراً، أحاول أن أفاضل بين الكلمات التي أبدأ بها فقرتي الأولى. وبعد أن افتتحتُ الرواية بالعبارات التي كان البعض منها يتردد في ذهني منذ أيام، راحت الكلمات نفسها تشقّ أمامي الطريق بعد ذلك، وتكشف لي عن ملامح الأحداث والشخوص. وتأكد لي، من جديد، أنّ الكلمات حين تتجسّد على بياض الورق، فإنّها تستثير بقوة حضورها أفكاراً وخواطر جديدة، فيتدفّق المزيد من الكلمات، وتتفتح أمام الكاتب مسالك ودروب ما كانت معروفة له من قبل. ولم يكن الهاجس الذي شغلني، وأنا أكتب، هو تجربة صيغة جديدة في الكتابة، بقدر ما كان القدرة على الإيصال بأحسن طرق التعبير الممكنة.

كنت أحس أحياناً، وأنا أحاول مواصلة الكتابة، كأنني أواجه صخرة هائلة، عليّ أن أعمل على زحزحتها من مكانها لكي أتمكن من المرور. وكان هذا الإحساس يدفعني الى الشعور باليأس. إلاّ أنّ الصخرة كانت لا تلبث أن تتحرك في النهاية، ويأخذ العمل مجراه مرة أخرى. وكنت حين أشعر بمرور الوقت، وأعي بوضوح ما يجري من حولي، أعرف أنّني خرجت عن الجوّ الملائم للكتابة، وأنّ عليّ أن أتوقف، إذ إنّ ما سأكتبه سوف تنقصه الحرارةُ وعنصرُ الإقناع. أما إذا فقدت إحساسي بالزمن، وتراجعت الأصواتُ والأشياءُ، وتلاشى العالم الخارجي بكل لغطه ومشاغله، وتملّكني ذلك الكائنُ الغامض المقيم في أعماق النفس، ليبدع ما يريد، فقد كنتُ إذّاك أعرف أن ما تخطّه يدي على بياض الورق لن يكون رديئاً.

كنت أشعر، أحياناً، أنّ عليّ أن أتباطأ قليلاً في الكتابة، من أجل أن تتوفر لديّ القدرة على كتابة نص أكثر عمقاً وأقوى تأثيراً، مثل عدّاء يراوح مكانه، لبعض الوقت، لكي يستردّ أنفاسه، قبل أن يعاود الركض من جديد، فكنتُ أظلّ أحياناً يومين، أو ثلاثة، وربما أكثر، بدون عمل. وفي أوقات أخرى يكتظّ رأسي بمشاهد وحوارات من الرواية لم أكن وصلتُ إليها بعد، كأن الشخوص والأحداث لا تريد أن تنتظر. يحدث لي هذا أثناء المشي، أو الاستحمام، أو العمل

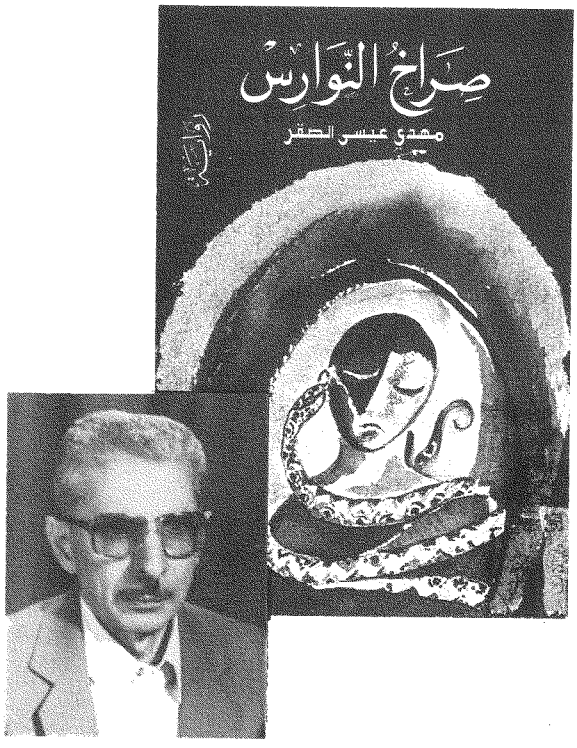

في حديقة الدار. وفي بعض الأحيان تقتحم عليّ لحظات الكتابة نفسها، فاضطر إلى ترك الفصل الذي أعمل فيه، وأمسك بها، على أوراق مستقلّة، قبل أن تزوغ مني. وحين يجيء دورها قد تقتضي الضروات الفنيّة إجراء تحوير فيها، أو تركها كما كتبتُها أول مرة. وأكتشف أنّ هذه المشاهد، والحوارات، التي يقذف بها «اللاوعيُ» في طريقي، بلا نظام، ولا ترتيب، وفي أوقات تبدو غير ملائمة، هي في الحقيقة أفضل كثيراً من تلك التي أقضي الساعات الطويلة أتلمس دربي إليها.

*

وقد اخترتُ أن يكون الصبيّ هو الراوية/البطل، يحكي الأحداث كما يراها وهو في أعمار مختلفة (رجلاً متزوجاً، مراهقاً يدرس في الكلية، صبياً صغيراً) بلا رابط من حيث جريان الزمن؛ اللّهم إلاّ الحالة النفسية التي تلازمه. وهذا ما جعل الرواية مركبة من عدة عهود متداخلة. كان المهم عندي أن يكتشف البطل، ويكشف الحقائق، كما تتراءى له، لا كما هي، وحسب العمر الذي هو فيه. أما رؤية الآخرين لها فتأتي عبر الحوار، وما ينقله هو بلسانه عنهم. وعمدتُ إلى هدم أيّ بناء في الرواية قد يؤدّي الى حصول مفاجأة غير متوقعة لدى القارئ. لذلك وضعتُ أحداث النهاية في البداية، تقريباً. فالقارئ يعرف ماذا حدث، في وقت مبكر؛ وما لا يعرفه هو **كيف** جرت الأمور.

وتبقى في حياة هذه العائلة المزّقة حقيقة مهمة، سرٌّ معيب يمسّ حياة البطل/الراوية نفسه، يظل خافياً عليه حتى